والمرض : خروج الشيء عن استقامة سلامته ، فكل عضو من أعضائك له سلامة : العين لها سلامة ، والأذن لها سلامة .. الخ والعجيب أن تعيش بالجارحة لا تدرى بها طالما هي سليمة صحيحة ، فإذا أصابها مرض تنبهتَ إليها ، وأحسست بنعمة الله عليك فيها حال سلامتها .

﴿ أَمِ ارْتَابُوا .. ۝٥٠ ﴾ [النور] يعني : شكُّوا في رسول الله ﴿ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ .. ۝٥٠ ﴾ [النور] يعني : يجور ويظلم ﴿ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٥٠ ﴾ [النور] أي : لأنفسهم أولاً ، وذلك منتهى الحُمْق أن يظلم الإنسان نفسه ، لو ظلم غيره لَقُلْنا : خير يجلبه لنفسه ، لكن ما الخير في ظلم الإنسان لنفسه ؟ ومَنْ ظلم نفسه لا تأمنْه إن ظلم الآخرين .

والحق - تبارك وتعالى - حينما يعاقب الظالم ، فذلك لمصلحته حتى لا يتمادى في ظُلْمه ، ويجرُّ على نفسه جزاء شر بعد أن كان الحق سبحانه يُمنِّيه بجزاء خير .

ثم يأتي السياق بالمقابل :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥١ ﴾

فما دُمْتَ قد آمنتَ ، والإيمان لا يكون إلا عن رغبة واختيار لا يجبرك أحد عليه ، فعليك أن تحترم اختيار نفسك بأنْ تطيعَ هذا الاختيار ، وإلا سفَّهتَ رأيك واختيارك ، لذلك كان حال المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله أن يقولوا : سمعنا وأطعنا .

ولو تأملتَ الكون من حولك لوجدتَهُ يسير على هذه القاعدة ، فما دون الإنسان في كَوْن الله مُسيَّر لا مُخيَّر ، وإنْ كان الأصل أنه خُيِّر

أولاً ، فاختار أن يكون مُسيَّراً من البداية ، وأراح نفسه ، كما قال سبحانه :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢)﴾ [الأحزاب]

وتصدير الآية الكريمة بـ (إنما) يدل على أنها سبقها مقابل ، هذا المقابل على النقيض لما يجيء بعدها ، فالمنافقون أعرضوا وردُّوا حكم الله ورسوله ، والمؤمنون قالوا سمعنا وأطعنا ، كما تقول : فلان كسول إنما أخوه مُجِدٌّ ، فقول المنافقين أنهم لا يقبلون حكم الله ورسوله ، أمّا المؤمنون فيقبلون حكْم الله ورسوله .

ومعنى ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. (٥١)﴾ [النور] يعني : سمعنا سمعاً واعياً يليه إجابة وطاعة ، لا مجرد أنْ يصل الصوت إلى أذن السامع دون أن يُؤثر فيه شيء .

ويقول تعالى في موضع آخر : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. (٨٣)﴾ [المائدة]

فالسمع له وظيفة ، وهو هنا بمعنى : أجبْنا يا رب ، وصممنا على الإجابة ، وهذا وعد كلامي يتبعه تنفيذ وطاعة ، مثل قولنا في الصلاة : سمع الله لمن حمده ، يعني : أجاب الله مَنْ حمده .

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾ [النور] المفلحون : الفائزون الذين بلغوا درجة الفلاح ، ومن العجيب أن يستخدم الحق سبحانه كلمة الفلاح ، وهي من فلاحة الأرض ؛ لأن الفلاحة في الأرض هي أصل الاقتيات ، وكل مَنْ أتقن فلاحة أرضه جاءت عليه بالثمرة الطيبة ، وزاد خيره ، وتضاعف محصوله ، حتى إن حبة القمح تعطي سبعمائة حبة ، فإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعالى تعطي من يزرعها كل

هذا العطاء ، فما بالك بخالق الأرض كيف يكون عطاؤه ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

كان سيدنا الشيخ موسى شريف - رحمه الله ورضي الله عنه - يدرس لنا التفسير ، فلما جاءت هذه الآية قال : اسمعوا ، هذه برقية من الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] فلم تدع هذه الآية حُكْماً من أحكام الإسلام إلا جاءتْ به في هذه البرقية الموجزة التي جمعتْ المنهج كله[1].

ومعنى ﴿ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] آمن بالله وأطاعه وصدَّق رسوله ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] أي : يخافه لما سبق من الذنوب ﴿ وَيَتَّقْهِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] في الباقي من عمره ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] وهكذا جمعتْ الآيةُ المعانيَ الكثيرة في اللفظ القليل الموجز.

ومعلوم أن التعبير الموجز أصعب من الإطناب والتطويل ، وسبق أنْ ذكرنا قصة الخطيب الإنجليزي المشهور حين قالوا له : إذا طُلب

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٦/٤٨٢٣) أن عمر بينما هو قائم في مسجد النبي ﷺ وإذا رجل من دهاقين الروم على رأسه وهو يقول : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقال له عمر : ما شأنك ؟ قال : أسلمت لله . قال : هل لهذا سبب ؟ قال : نعم إني قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت . قال : ما هذه الآية ؟ قال : قوله تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ ﴾ في الفرائض ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ في السنن ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ ﴾ فيما مضى من عمره ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما بقي من عمره ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة . فقال عمر : قال النبي ﷺ : « أوتيتُ جوامع الكلم ».

مثل إعداد خطاب تلقيه في ربع ساعة في كم تُعدّه ؟ قال : في أسبوع . قالوا : فإنْ كان في نصف ساعة ؟ قال : أُعدُّه في ثلاثة أيام ، قالوا : فإذا كان في ساعة ؟ قال : أعدّه في يومين ، قالوا : فإنْ كان في ثلاث ساعات ؟ قال : أعده الآن .

وقالوا : إن سعد باشا زغلول رحمه الله أرسل من فرنسا خطاباً لصديق في أربع صفحات قال فيه : أما بعد ، فإني أعتذر إليك عن الإطناب (الإطالة) ؛ لأنه لا وقت عندي للإيجاز .

وبعد أنْ تحدّث القرآن عن قَوْل المنافقين وعن ما يقابله من قول المؤمنين وما ترتب عليه من حكم ﴿فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾ [النور] ذلك لأنَ ذكْر المقابل يُظهر المقابل ، كما قالوا : والضد يظهر حُسْنَه الضدُّ . بعدها عاد إلى الحديث عن النفاق والمنافقين ، فقال سبحانه :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣)﴾

القَسَم : هو اليمين والحلف ، والإنسان يُقسم ليؤكد المقسَم عليه يريد أن يطمئن المخاطب على أن المقسَم عليه حقٌّ ، وهؤلاء لم يقسموا بالله سراً في أنفسهم ، إنما ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ .. (٥٣)﴾ [النور] يعني : بالَغوا وأتَوْا بمنتهى الجهد في القسم ، فلم يقل أحدهم : وحياة أمي أو أبي ، إنما أقسموا بالله ، وليس هناك قَسَم أبلغ من هذا القسم ، لذلك يقول النبي ﷺ : « مَنْ كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت »[1] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٦٧٩ ، ٣٨٣٦ ، ٦١٠٨) وكذا مسلم في صحيحه (١٦٤٦) كتاب الأيمان من حديث عبد الله بن مسعود . وفي لفظ مسلم أن ابن مسعود أدرك عمر بن الخطاب في ركب وعمر يحلف بأبيه فناداهم رسول الله ﷺ : « ألا إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

فلما أقسموا بالله للرسول أنْ يخرجوا من بيوتهم وأولادهم وأموالهم إلى الجهاد مع رسول الله فضح الله سرائرهم ، وكشف سترهم ، وأبان عن زيف نواياهم ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [النساء]

وتأمل دقَّة الأداء القرآني في : ﴿ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [النساء] وهذا احتياط ؛ لأن منهم أناساً يراود الإيمان قلوبهم ويفكرون في أنْ يُخلصوا إيمانهم ونواياهم لله تعالى ، ويعودوا إلى الإسلام الصحيح .

والقرآن يفضح أمر هؤلاء الذين يُقسمون عن غير صدْق في القَسَم ، كمن تعوَّد كثرة الحلف والحِنْث فيه ؛ لذلك ينهاهم عن هذا الحلف : ﴿ قُل لاَّ تُقْسِمُوا .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [النور] ولا يمكن أن ينهى المتكلمُ المخَاطبَ عن القسم خصوصاً إذا أقسم على خير ، لكن هؤلاء حانثون في قَسَمهم ، فهو كعدمه ، فهم يُقسمون باللسان ، ويخالفون بالوجدان .

وقوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [النور] يُشعر بتوبيخهم ، كأنه يقول لهم : طاعتكم معروفة لدينا ولها سوابق واضحة ، فهي طاعة باللسان فحسب ، ثم يؤكد هذا المعنى فيقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النور] والذي يؤكد هذه الخبرة أنه يفضح قلوبهم ويفضح نواياهم .

والعجيب أنهم لا يعتبرون بالأحداث السابقة ، ولا يتعظون بها ، وقد سبق لهم أنه كان يجلس أحدهم يُحدِّث نفسه الحديث فيفضح الله ما في نفسه ويخبر به رسول الله ، فيبلغهم بما يدور في نفوسهم ، كما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

ومع ذلك لم يعتبروا ولم يعترفوا لرسول الله بأنه مُؤيَّد من الله ، وأنه تعالى لن يتخلى عن رسوله ، ولن يدعه لهم يخادعونه ويغشُّونه ، وهذه سوابق تكررتْ منهم مرات عدَّة ، ومع ذلك لم ينتهوا عما هم فيه من النفاق ، ولم يُخلصوا الإيمان لله .

وبعد هذا كله يوصي الحق تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يُبقى عليهم ، وألاَّ يرمى (طوبتهم) لعل وعسى ، فيقول عز وجل :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

وكأنه تعالى لا يريد أنْ يُغلق الباب دونهم ، فيعطيهم الفرصة : جَدِّدوا طاعة لله ، وجَدِّدوا طاعة لرسوله ، واستدركوا الأمر ؛ ذلك لأنهم عباده وخَلْقه .

وكما ورد في الحديث الشريف : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله في فلاة .. »[1]

ونلحظ في هذه الآية تكرار الأمر أطيعوا ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور] وفي آيات أخرى يأتي الأمر مرة واحدة ، كما في الآية السابقة : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] ، وفي : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال] وفي ﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء] أي : أن طاعتهما واحدة .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٨ ، ٦٣٠٩) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود . والفلاة : الصحراء الواسعة التي خَلَت عن الزرع والإنبات .

قالوا : لأن القرآن ليس كتابَ أحكام فحسب كالكتب السابقة ، إنما هو كتاب إعجاز ، والأصل فيه أنه مُعْجز ، ومع ذلك أدخل فيه بعض الأصول والأحكام ، وترك البعض الآخر لبيان الرسول وتوضيحه في الحديث الشريف ، وجعل له ﷺ حقاً في التشريع بنصِّ القرآن : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ۝٧﴾ [الحشر]

والقرآن حين يُورد الأحكام يوردها إجمالاً ثم يُفصِّلها رسول الله ﷺ ، فالصلاة مثلاً أمر بها الحق - تبارك وتعالى - وفرضها ، لكن تفصيلها جاء في السنة النبوية المطهرة ، فإنْ أردتَ التفصيل فانظر في السنة .

كالذي يقول : إذا غاب الموظف عن عمله خمسة عشر يوماً يُفصَل ، مع أن الدستور لم ينص على هذا ، نقول : لكن في الدستور مادة خاصة بالموظفين تنظم مثل هذه الأمور ، وتضع لهم اللوائح المنظِّمة للعمل .

وذكرنا أن الشيخ محمد عبده سأله بعض المستشرقين : تقولون في القرآن ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ۝٣٨﴾ [الأنعام] فهات لي من القرآن : كم رغيفاً في إردب القمح ؟ فما كان من الشيخ إلا أن أرسل لأحد الخبازين وسأله هذا السؤال فأجابه : في الإردب كذا رغيف . فاعترض السائل : أريد من القرآن .

فردَّ الشيخ : هذا من القرآن ؛ لأنه يقول : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل]

فالأمر الذي يصدر فيه حكم من الله وحكم من رسول الله ، كالصلاة مثلاً : ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣﴾ [النساء]

وفي الحديث : « الصلاة عماد الدين »[1]

ففي مثل هذه المسألة تقول : أطيعوا الله والرسول ؛ لأنهما متواردان على أمر واحد ، فجاء الأمر بالطاعة واحداً .

أما في مسائل عدد الركعات وما يُقَال في كل ركعة وكونها سراً أو جهراً ، كلها مسائل بيَّنها رسول الله . إذن : فهناك طاعة لله في إجمال التشريع أن الصلاة مفروضة ، وهناك طاعة خاصة بالرسول في تفصيل هذا التشريع ، لذلك يأتي الأمر مرتين ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور]

كما نلحظ في القرآن : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٦﴾﴾ [النور] هكذا فحسب .

قالوا : هذه في المسائل التي لم يَرِدْ فيها تشريع ونصٌّ ، فالرسول في هذه الحالة هو المشرِّع ، وهذه من مميزات النبي ﷺ عن جميع الرسل ، فقد جاءوا جميعاً لاستقبال التشريع وتبليغه للناس ، وكان ﷺ هو الوحيد الذي فُوِّض من الله في التشريع .

ثم يقول تعالى : ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] لأنه تعالى أعلم بحرص النبي على هداية القوم ، وكيف أنه يجهد نفسه في دعوتهم ، كما خاطبه في موضع آخر : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء] وكان الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه : قُلْ لهم وادْعُهم مرة ثانية لتريح نفسك ﴿قُلْ

---

(١) تمام الحديث : « من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » . قال الحافظ العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقي في الشُّعب بسند ضعَّفه من حديث عمر » . وقال الملا على القاري في « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح في « مشكل الوسيط » : « إنه غير معروف » . وذكره السيوطي في الدرر المنتثرة (ح ٢٧٩) .

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾ [النور] وإنْ كنت غير مكلَّف بالتكرار ، فما عليك إلا البلاغ مرة واحدة .

ومعنى : ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] أي : من الله تعالى ، فالرسول حُمِّل الدعوة والبلاغ ، وأنتم حُمِّلْتم الطاعة والأداء ، فعليكم أن تؤدُّوا ما كلَّفكم الله به .

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] نلحظ أن المفعول في ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] مفرد ، فلم يقل : تطيعوهما ، لتناسب صدر الآية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] ذلك لأن الطاعة هنا غير منقسمة ، بل هي طاعة واحدة .

وقوله : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] تكليفاً من الله ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور] المحيط بكل تفصيلات المنهج التشريعي لتنظيم حركة الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

---

(١) سبب نزول الآية : مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعدما أوحى الله إليه خائفاً هو وأصحابه يدعون إلى الله سبحانه سراً وعلانية ، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا بها خائفين ، يصبحون في السلاح ويمسون في السلاح . فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح ، فقال رسول الله ﷺ : لن تلبثوا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيهم حديدة ، وأنزل الله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٥٥﴾﴾ [النور] إلى آخر الآية ، فأظهر الله تعالى نبيه على جزيرة العرب ، فوضعوا السلاح وأمنوا ثم قبض الله تعالى نبيه فكانوا آمنين كذلك في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا النعمة فأدخل الله عليهم الخوف وغيَّروا فغيَّر الله بهم . رواه الربيع ابن أنس عن أبي العالية . أورده الواحدي في أسباب النزول (ص ١٨٨) ، وابن كثير في تفسيره (٣٠١/٣) ، والقرطبي في تفسيره (٤٨٢٥/٦) .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ (٥٥) ﴾

في أول الحديث عن سورة النور قلنا : إنها سُمِّيَتْ بالنور ؛ لأنها تبين للناس النور الحسيّ في الكون ، ونقيس عليه النور المعنوي في القيم ، وما دُمْنا نطفىء أنوارنا الحسية حين يظهر نور الله في الشمس ، يجب كذلك أن نطفىء أنوارنا المعنوية حين يأتينا شرع من الله .

فليس لأحد رأيٌ مع شرع الله ؛ ذلك لأن الخالق ـ عز وجل ـ يريد لخليفته في الأرض أن يكون في نور حسيٍّ ومعنوي ، ثم ضمن له مقومات بقاء حياته بالطعام والشراب شريطةَ أنْ يكون من حلال حتى تبنى خلاياه وتتكون من الحلال فيَسلم له جهاز الاستقبال عن الله وجهاز الإرسال إنْ أراد الدعاء .

وفي الحديث الشريف : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِّى

بالحرام فأنَّى يُستجاب لذلك ؟»[1] .

فهذه أجهزة مُعطَّلة خَرِبة أشبه ما تكون بالراديو الذى لا يحسن استقبال ما تذيعه محطات الإذاعة ، فالإرسال قائم يستقبله غيره ، أما هو فجهاز استقباله غير سليم .

فإذا ضمنتَ سلامة تكوينك بلقمة الحلال ضمن الله لك إجابة الدعاء ، وفى الحديث يقول النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : « أطِبْ مَطْعمك تكُنْ مُستجاب الدعوة »[2] .

ثم ضمن الله للإنسان مُقوِّمات بقاء نوعه بالزواج لاستمرار الذرية لتستمر الخلافة فى الأرض طاهرة نظيفة ، ثم تحدثتْ السورة مُحذِّرة إياكم أنْ تجترئوا على أعراض الناس ، أو ترْمُوا المحصنات ، أو تدخلوا البيوت دون استئذان ، حتى لا تطّلعوا على عورات الناس .. إلخ .

فالحق - سبحانه وتعالى - يريد سلامة المجتمع وسلامة الخلافة فى الأرض ، وكل هذه الأحكام والمعانى تصبُّ فى هذه الآية :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور] فمَنْ فعل ذلك كان أهْلاً للخلافة عن الله ، إنها معركة ابتلاءات وتمحيص تُبيِّن الغَثَّ[3] من السَّمين ، ألاَ ترى المسلمين

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٥) كتاب الزكاة ، وأحمد فى مسنده (٣٢٨/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٩١/١٠) من حديث ابن عباس قال : تليت عند رسول الله ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا .. ﴿١٦٨﴾ ﴾ [البقرة] فقال سعد : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال ﷺ : « يا سعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده ، إن العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه العمل أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » . قال الهيثمى : « رواه الطبرانى فى الصغير وفيه من لم أعرفهم » .

(٣) الغث : الردىء من كل شىء . ولحم غَثٌّ : مهزول . [لسان العرب - مادة : غثث] .

الأوائل كيف كانوا يُعذّبون ويُضطهدون ، ولا يجرؤ أحد على حمايتهم حتى اضطروا للهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وقد قال تعالى : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت]

وهؤلاء الصحابة هم الذين حملوا للدنيا مشاعلَ الهداية ، وساحوا بدعوة الله في أنحاء الأرض ، فلا بُدَّ أن يُربوا هذه التربية القاسية ، وأن يُمتحنوا كل هذا الامتحان ، وهم يعلمون جيداً ثمن هذه التضحية وينتظرون ثوابها من الله ، فأهل الحق يدفعون الثمن أولاً ، أما أهل المبادىء الباطلة فيقبضون الثمن أولاً قبل أنْ يتحركوا في اتجاه مبادئهم . وهذا الابتلاء الذي عاشه المسلمون الأوائل هو من تنقية الخليفة ليكون أهْلاً لها .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَعَدَ اللَّهُ .. (٥٥)﴾ [النور] والوَعْد : بشارة بخير لم يَأْتِ زمنُه بعد ، حتى يستعد الناس بالوسيلة له ، وضده الوعيد أو الإنذار بشرٍّ لم يأتِ زمنه بعد ، لتكون هناك فرصة للاحتياط وتلافي الوقوع في أسبابه .

وما دام الوعد من الله تعالى فهو صِدْق ، كما قال سبحانه : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢)﴾ [النساء] وقال سبحانه : ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ (١١١)﴾ [التوبة]

والذي يفسد على الناس وعودهم ، ويجرُّ عليهم عدم الوفاء أن الإنسان مُتغيِّر بطبْعه مُتقلِّب ، فقد يَعِد إنساناً بخير ثم يتغير قلبه عليه فلا يفي له بما وعد ، وقد يأتي زمنُ الوفاء فلا يقدر عليه ، أمَّا الحق - تبارك وتعالى - فلا يتغير أبداً ، وهو سبحانه قادر على الوفاء بما وعد به ، فليست هناك قوة أخرى تمنعه ، فهو سبحانه واحد لا إله غيره ؛ لذلك فوَعْده تعالى ناجز .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.. (٥٥) ﴾ [النور] قلنا : إن الإيمان الذي يقوم على صفاء الينبوع والعقيدة ليس مطلوباً لذاته ، إنما لا بُدَّ أن تكون له ثمرة ، وأن يُرى أثره طاعة وتنفيذاً لأوامر الله ، فطالما آمنتَ بالله فنفِّذ ما يأمرك به ، وهناك من الناس مَنْ يفعل الخير ، لكن ليس من منطلق إيماني مثل المنافقين الذين قال الله فيهم : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا.. (١٤) ﴾ [الحجرات] فردَّ الله عليهم : ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا.. (١٤) ﴾ [الحجرات] يعني : خضعنا للأوامر ، لكن عن غير إيمان ، إذن : فقيمة الإيمان أن تُنفِّذ مطلوبه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فبماذا وعد الله الذين آمنوا ؟ ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ.. (٥٥) ﴾ [النور] وهذه ليست جديدة ، فقد سبقهم أسلافهم الأوائل ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.. (٥٥) ﴾ [النور] ، فاستخلاف الذين آمنوا ليس بِدْعاً ، إنما هو أمر مُشاهد في مواكب الرسل والنبوة ومُشَاهد في المسلمين الأوائل من الصحابة الذين أُوذُوا وعُذِّبوا واضطهدوا وأُخْرِجوا من ديارهم وأولادهم وأموالهم ولم يُؤمَروا بردِّ العدوان .

حتى إن رسول الله ﷺ حينما قدم المدينة في جَمْع من صحابته استقبله الأنصار بالحفاوة ، واحتضنوا هؤلاء المهاجرين ، وفعلوا معهم نموذجاً من الإيثار ليس له مثيل في تاريخ البشرية ، وهل هناك إيثار أعظم من أنْ يعرض الأنصاري زوجاته على المهاجر يقول : اختر إحداهما أطلِّقها لك ، إلى هذه الدرجة فعل الإيمان بنفوس الأنصار .

ولما رأى كفار قريش ما صنعه الأنصار مع المهاجرين توقَّدوا نارًا : كيف يعيش المهاجرون فى المدينة هذه العيشة الهنية وتكتلوا جميعاً ضد هذا الدين ليضربوه عن قَوْس واحدة ، وتآمروا على القدوة ليقضوا على هذا الدين الوليد الذى يشكل أعظم الخطر عليهم .

حتى إن الأمر قد بلغ بالمهاجرين والأنصار أنهم لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصبحون إلا بالسلاح مخافة أنْ ينقضْ عليهم أعداؤهم ، حتى إن أحد الصحابة يقول لإخوانه : أترونَ أنَّا نعيش حتى نأمن ونطمئن ولا نبيت في السلاح ونصبح فيه ، ولا نخشى إلا الله ؟ يعنى : أهناك أمل في هذه الغاية ؟

وآخر يذهب إلى رسول الله ﷺ يقول : يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون ؟ ألاَ يأتينا يوم نضع فيه السلاح ونبيت آمنين ؟

فيقول النبى ﷺ بلسان الواثق من وعد ربه ، وليس كلاماً قد يُكذَّب فيما بعد : « لا تصبرون إلا يسيراً ، حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم مُحْتبياً ليست فيه حديدة »[1] يعنى : فى الملأ الواسع ، والاحتباء جلسة المستريح الهانىء ، والحديدة كناية عن السلاح .

وقد قال ﷺ : « إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ مُلْك أمتى ما زُوِىَ لى منها »[2] .

ومعنى « إن الله زوى لى الأرض » معلوم أن للإنسان مجالَ رؤية يلتقى فيه إلى نهاية الأفق ، أمَّا الأرض ذاتها فواسعة ، فَزُوِيَتْ الأرض لرسول الله يعنى : جُمعت في زاوية ، فصار ينظر إليها كلها .

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٣٠١/٢) سبباً فى نزول الآية مرويا عن أبى العالية .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٨٩) كتاب الفتن . وأحمد فى مسنده (٢٧٨/٥ ، ٢٨٤) من حديث ثوبان رضى الله عنه .

إذن : فهم في هذه المرحلة يشتهون الأمن وهدوء البال . وقد قال تعالى عنهم في هذه الفترة : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

وفي غمرة هذه الشدة وقمة هذا الضيق يُنزل تعالى على رسوله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] حتى إن الصحابة ليتعجبون ، يقول عمر رضي الله عنه : أيُّ جمع هذا ؟ وقد نزلت الآية وهم في مكة في أشد الخوف لا يستطيعون حماية أنفسهم .

لكن بعد بدر وبعد أنْ رأى ما نزل بالكفار قال : صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

ثم ينزل الله تعالى على رسوله ﷺ بعض الآيات التي تُطمئن المؤمنين وتصبرهم : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. (٤١) ﴾ [الرعد]

فاطمئنوا ، فكل يوم ننقص من أرض الكفر ، ونزيد في أرض الإيمان ، فالمقدِّمات في صالحكم ، ثم يأتي فتح مكة ويدخلها النبي ﷺ في موكب مهيب مُطأطئاً رأسه ، تواضعاً لمن أدخله ، مُظهراً ذلة العبودية لله .

حتى إن أبا سفيان لما رأى رسول الله ﷺ في هذا الموكب يقول للعباس : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً ، فيقول العباس : إنها النبوة يا أبا سفيان[1] ، يعني : المسألة ليست مُلْكاً إنما هي بشائر

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٤٠٤/٤) أن جيوش المسلمين عُرضت على أبي سفيان في فتح مكة وهو مع العباس عم رسول الله ﷺ ، فقال : ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة . والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً ، قال : قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

النصر لدين الله وظهوره على معقل الأصنام والأوثان في مكة .

ثم يذهب إلى خيبر معقل أهل الكتاب من بني قَيْنُقَاع وبني النضير وبني قريظة وينتصر عليهم ، ثم تسقط في يده البحرين ومجوس هَجَر ، ويدفعون الجزية .

بعد ذلك يرسل ﷺ كُتبه إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ، فيرسل إلى النجاشي ملك الحبشة ، وإلى المقوقس ، وإلى هرقل ، وإلى كسرى ، وتأتيه الهدايا من كُلّ هؤلاء .

ويستمر المدُّ الإسلامي والوفاء بوعد الله تعالى لخليفة رسول الله ، فإنْ كان المد الإسلامي قد شمل الجزيرة العربية على عهد رسول الله ، فإنه تعدّاها إلى شتى أنحاء العالم في عهد الخلفاء الراشدين ، حتى ساد الإسلامُ العالمَ كله ، وأظهره الله على أكبر حضارتين في ذلك الوقت : حضارة فارس في الشرق ، وحضارة الروم في الغرب في وقت واحد ، ويتحقق وعد الله للذين آمنوا بأنْ يستخلفهم في الأرض .

وبعد وفاة رسول الله ﷺ تتحقق النبوءات التي أخبر بها ، ومنها ما كان من أمر سراقة بن مالك الذي خرج خلف رسول الله في رحلة الهجرة يريد طلبه والفوز بجائزة قريش ، وبعد أنْ تاب سُراقة وعاد إلى الجادة كان الصحابة يعجبون لدقة ساعديْه ويصفونهما بما يدعو إلى الضحك فكان ﷺ يقول عن ساعدي سراقة : « كيف بهما في سواري كسرى ؟ »[1]

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٦/٣٢٥) أن عمر بن الخطاب أتى بفروة كسرى فوضعت بين يديه وفي القوم سراقة بن مالك قال : فألقى إليه سواري كسرى بن هرمز فجعلهما في يديه فبلغا منكبيه ، فلما رآهما في يَدَيْ سراقة قال : الحمد لله ، سوارا كسرى بن هرمز في يد سُراقة ابن مالك بن جُعْشم أعرابي من بني مدلج وذكر الحديث . قال الشافعي - رحمه الله - وإنما ألبسهما سراقة لأن النبي ﷺ قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه « كأني بك قد لبست سواري كسرى » .

ويفتح المسلمون بعد ذلك مُلْك كسرى ، ويكون سوارا كسرى من نصيب سُراقة ، فيلبسهما ، ويراهما الناس في يديه .

هذه كلها بشائر ومقدمات لوعد الله يراها المؤمنون في أنفسهم ، لا فيمن يأتي بعد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ.. (٥٥)﴾ [النور] يعني : المسألة لن تطول .

كذلك أم حرام بنت ملحان[1] التي خرجت في غزوة ذات الصواري وركبت البحر ذكرت أن رسول الله ﷺ كان ينام هناك ثم يصحو وهو يضحك ، فقالت له : ما يُضحكك يا رسول الله ؟ قال : « أناس من أمتي يركبون زَبَد هذا البحر ، ملوك على الأسرَّة أو كالملوك على الأسرَّة » فقال ﷺ ادعُ الله أن أكون منهم ، فدعا لها فاستجاب الله دعاءه ، وخرجتْ في الغزوة ، ولما ركبوا البحر الأبيض أرادت أنْ تخرج فماتت[2] .

إذن : فالبشارة في هذه الآية ليست بشارة لفظية ، إنما هي بشارة واقعية لها واقع يؤيدها ، قد حدث فعلاً .

لكن ، ما المراد بالأرض في ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ..(٥٥)﴾ [النور] ؟ إذا جاءت الأرض هكذا مُفْردةً غير مضافة لشيء فتعني كل الأرض ، كما في قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا

---

(١) أخت أم سليم ، أسلمت وبايعت رسول الله ﷺ ، وكان يقيل في بيتها وتزوجها عبادة بن الصامت . قال هشام بن الغاز : قبر أم حرام بقبرص ، وهم يقولون : هذا قبر المرأة الصالحة . « المؤمنات الصالحات لتقي الدين الحصني توفي ٨٢٩ هـ ، ص ٥٣ ، ٥٤ ـ دار البشير تحقيق عادل أبو المعاطي » .

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٦١) بهذا اللفظ ، وأخرجه البخاري في صحيحه (٦/١٠٢ ـ فتح الباري) وأبو نعيم في الحلية (٢/٦٢) بلفظ : « أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا . قالت أم حرام : أنا منهم ؟ قال : « أنت منهم » .

الأَرْضِ .. (١٠٤)﴾ [الإسراء] يعني : تقطّعوا في كل أنحائها ، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ .. (١٠٤)﴾ [الإسراء] الذي وعد الله به ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)﴾ [الإسراء] يعني : جمعناكم من الأراضي كلها ، وهذا هو الأمل القوي الذي نعيش عليه ، وننتظر من الله أنْ يتحقق .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ .. (٥٥)﴾ [النور] فوق الاستخلاف في الأرض يُمكّن الله لهم الدين ، ومعنى تمكين الدين : سيطرته على حركة الحياة ، فلا يصدر من أمور الحياة أمر إلا في ضوئه وعلى هَدْيه ، لا يكون ديناً مُعطّلاً كما نُعطّله نحن اليوم ، تمكين الدين يعني توظيفه وقيامه بدوره في حركة الحياة تنظيماً وصيانة .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا .. (٥٥)﴾ [النور] وهم الذين قالوا : نبيت في السلاح ، ونصبح في السلاح ، فيبدلهم الله بعد هذا الخوف أمْناً ، فإذا ما حدث ذلك فعليهم أنْ يحافظوا على الخلافة هذه ، وأنْ يقوموا بحقها ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)﴾ [النور]

ومعنى ﴿كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ .. (٥٥)﴾ [النور] يعني : بعد أن استخلفه الله ، ومكّن له الدين وأمّنه وأزال عنه أسباب الخوف .

وفَرْق بين تمكين الإسلام وتمكين مَنْ يَنْسب إلى الإسلام ، فالبعض يدّعي الإسلام ، ويركب موجته حتى يحكم ويستتب له الأمر وتنتهي المسألة ، لا .. لأن التمكين ليس لك أيها الحاكم ، إنما التمكين لدين الله .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

دائماً ما يقرن القرآن بين هذين الركنين ، وتأتي الزكاة بعد الصلاة ؛ ذلك لأن الصلاة هي الركن الوحيد الذى فُرِض من الله مباشرة ، أما بقية الأركان فقد فُرِضَتْ بالوحي ، وضربنا لذلك مثلاً ، ولله تعالى المثل الأعلى بالرئيس الذى يُكلِّف مرؤوسيه بتأشيرة أو بالتليفون ، فإنْ كان الأمر مُهماً استدعى الموظف المختص إلى مكتبه وكلَّفه بهذا الأمر مباشرة لأهميته .

فكذلك الحق - تبارك وتعالى - أمر بكل التكاليف الشرعية بالوحي ، إلا الصلاة فقد فرضها على رسول الله بعد أن استدعاه إلى رحلة المعراج فكلَّفه بها مشافهةً دون واسطة ، ولما يعلمه الله تعالى من محبة النبى ﷺ لأمته قال له : أنا فرضتُ عليك الصلاة بالقرب ، وكذلك أجعلها للمصلى فى الأرض بالقرب ، فإنْ دخل المسجد وجدنى .

وإنْ كانت أركان الإسلام خمسةً ، فإن الشهادة والصلاة هما الركنان الدائمان اللذان لا ينحلان عن المؤمن بحال من الأحوال ، فقد لا تتوفر لك شروط الصوم أو الزكاة أو الحج فلا تجب عليك ، كما أن الصلاة هى الفريضة المكررة على مدار اليوم والليلة خمس مرات ، وبها يتم إعلان الولاء لله دائماً ، وقد وزَّعها الحق سبحانه على الزمن ليظل المؤمن على صلة دائمة بربه كلما شغلتْه الدنيا وجد (الله أكبر) تناديه .

وانظر إلى عظمة الخالق - عز وجل - حين يطلب من صنعته أن

تقابله وتُعرض عليه كل يوم خمس مرات ، وهو سبحانه الذي يطلب هذا اللقاء ويفرضه عليك لمصلحتك أنت ، ولك أن تتصور صنعة تُعرض على صانعها كل يوم خمس مرات أيصيبها عَطَب ؟

وربك هو الذي يناديك ويدعوك للقائه ويقول : « لا أملّ حتّى تملُّوا »[1] ومن رحمته بك ومحبته لك تركَ لك حرية اختيار الزمان والمكان ، وترك لك حرية إنهاء المقابلة متى تشاء ، فإنْ أردتَ أنْ تظلّ في بيته وفي معيته فعلى الرَّحْب والسَّعَة .

ولأهمية الصلاة ومكانتها في الإسلام اجتمع فيها كل أركان الإسلام ، ففي الصلاة تتكرر الشهادة : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وفي الصلاة زكاة ؛ لأن الزكاة فرع العمل ، والعمل فرع الوقت ، والصلاة تأخذ الوقت نفسه ، وفيها صيام حيث تمتنع في الصلاة عما تمتنع عنه في الصوم بل وأكثر ، وفيها حج لأنك تتجه في صلاتك إلى الكعبة .

إذن : فالصلاة نائبة عن جميع الأركان في الاستبقاء ، لذلك كانت هي عمود الدين ، والتي لا تسقط عن المؤمن بحال من الأحوال حتى إنْ لم يستطع الصلاة قائماً صلى جالساً أو مضطجعاً ، ولو أن يشير بأصبعه أو بطرفه أو حتى يخطرها على باله ؛ ذلك لاستدامة الولاء بالعبودية لله المعبود .

والصلاة تحفظ القيم ، فتُسوِّي بين الناس ، فيقف الغني والفقير والرئيس والمرؤوس في صَفٍّ واحد ، الكل يجلس حَسْبَ قدومه ،

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول : « خذوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا » . أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٧٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (٧٨٢) كتاب صلاة المسافرين .

وهذا يُحدث استطراقاً عبودياً في المجتمع ، ففي الصلاة مجال يستوي فيه الجميع .

وإنْ كانت الصلاة قوامَ القيم ، فالزكاة قوام المادة لمنْ ليستْ له قدرة على الكسب والعمل . إذن : لدينا قوانين للحياة ، ولاستدامة الخلافة على الأرض قوام القيم في الصلاة ، وقوام المادة في الزكاة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾ [النور] وهنا في الصلاة والزكاة خَصَّ الرسول بالإطاعة : لأنه صاحب البيان والتفصيل لما أجمله الحق سبحانه في فرضية الصلاة والزكاة ، حيث تفصيل كل منهما في السُّنة المطهرة ، فقال : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٥٦) ﴾ [النور]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) ﴾

يعود السياق للحديث عن الكافرين : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ .. (٥٧) ﴾ [النور] يعني : لا تظنن ، والشيء المعجز هو الذي يثبت العجز للمقابل ، تقول : عملنا شيئاً مُعْجزاً لفلان يعني : لا يستطيع الإتيان بمثله .

فإياك أنْ تظن أن الكافرين مهما علَتْ مراتبهم ومهما استشرى طغيانهم يُفْلِتون من عقاب الله ، فلن يثبتوا له سبحانه العجز عنهم أبداً ، ولن يُعجزوه ، إنما يُملي لهم سبحانه ويمهلهم حتى إذا أخذهم أخذهم أخْذ عزيز مقتدر ، وهو سبحانه مُدركهم لا محالةَ .